

## المسجد

### المعهد الأول للتعليم عند المسلمين

بقلم الدكتور حسين أمين

جامعة بغداد

ظهرت الدعوة الإسلامية ، ولازمها التعليم منذ فجر انبثاقها ، وكانت أولى الآيات القرآنية التي أنزلت على سيدنا محمد (ص) تشير إلى العلم وبعض أدواته قال تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . وتوالت الآيات القرآنية الكريمة تنزل على الرسول الكريم وكثير منها يخص المسلمين على العلم ويشجعهم على التعليم ، كما كانت تلك الآيات الكريمة ترتفع بقدر العلم وتعلو شأن العلماء وتمجد العقل والمعرفة وتمنح من أجهل وأهله ، وكثيراً ما تقرنه بالعسى وتشبهه بالضلالة والظلمات الحالكة ، واعتبر القرآن الكريم التعليم من وظائف النبي (ص) ، قال عز من قائل : « ربنا وأبعث فيهم رسولا منهم يلطون عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » .

وليس من شك أن التعليم من مستلزمات تطور وازدهار المجتمع الانساني ، وهو في أبسط مظاهره ليس سوى تكييف الفرد مع ضروريات الحياة ولوازمها في بيئته ، وإذا كان الإسلام هو النظام المرجح للحياة عند المسلمين بكل مظاهره فقد كان فهمه ودراسته أمراً لا بد منه لأفراد الجماعة الإسلامية ، فالتعليم إذن كان من مستلزمات الدعوة الجديدة لتحقيق التربية الصحيحة التي تهدف إليها الدعوة الإسلامية ، ومن الواضح أن الرسول (ص) كان يهدف بناء أمة جديدة وإنشاء حكومة تضاهي الحكومات القائمة في عصره فلا بد من وجود طبقة متعلمة متورة تتحمل عبء الدعوة ولها قوة الحججة والمقدرة على الإقناع بالطرق العلمية وتذكر المراجع التاريخية أنه لم يكن بين العرب عدد كبير من الذين يتقنون القراءة والكتابة ، ويذكر القلقشندي

طبقات القراء : إن أول من أقرأ الناس بالكوفة بالقراءة المجمع عليها أبو عبد الرحمن السلمي ، وإن يفتخر مسجد الكوفة بقارئه كبير نال شهرة واسعة وكان ثقة ثبنا ، إنما يفتخر بان وجابه ضمت أحد قراء القرآن الكريم السبعة حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الكوفي التيمي . قال عنه ابن الجزرى : وإليه صارت الإمامة فى القراءة بعد عاصم والأعمش وكان اماماً حجة ثقة ثبنا رضى قوماً بكتاب الله بصيراً بالفرائض وعارفاً بالعربية حافظاً للحديث عابداً خاشعاً ورعاً قانناً لله عديم النظر . وذكر ابن الجزرى أيضاً عن عبد الله العجلي قوله : إن أبنا حنيفة قال لحمزة بن حبيب : شتان غلبتا عليهما لسا تنازعك فيما القرآن والفرائض . وعن سفيان الثورى قوله : غلب حمزة الناس على القرآن والفرائض . وقال عنه أيضاً : ما قرأ حمزه حرفاً من كتاب الله إلا بأثر ، وثوى حمزه بن حبيب الكوفى سنة ١٥٦ هـ (١) .

وكان مسجد الكوفة مركزاً كبيراً وخصباً من مراكز الفقه . ففى هذا المسجد الشريف ، ظهرت بوادر مبادئ الفقه المبني على التجرد واستنباط مفهومه من الكتاب والسنة . فى هذا المسجد جلس الإمام على ابن أبى طالب (ع) يلقت الناس أصول الدين ، وفى هذا المسجد جلس عبد الله ابن مسعود وعروة بن أبى الجعد وشريح بن الحارث وسعيد بن جبير ، وامتازت مدرسة الكوفة التفهيمية بكثرة علمائها ووفرة آثارهم وأثرهم الكبير فى ازدهار هذا العلم .

وظهرت فى مسجد الكوفة مدرسة لتفسير القرآن الكريم ، واشتهر من رجالها سعيد بن جبير الذى قتل سنة ٦٤ هـ . وكان سعيد بن جبير عالماً بالتفسير . وعلى بن حمزة الكاشانى انتهت إليه رئاسة الإقراء بعد حمزة بن حبيب الكوفى . وذكر أن الحلقة التى تحيط به فى مسجد الكوفة أكبر الحلقات وأكثرها طلاباً ، وكان يجمع طلابه ويجلس على كرسى ثم يتلو عليهم

(١) المرجع السابق - ١ - ص ٢٦٣

القرآن وهم يسمعون ويضبطون عنه (١) ويحيى بن زيد الفراء الذي عنى بدراسة القرآن وتفسيره، وأثبت ابن النديم الكتب التي ألفها، منها: كتاب معاني القرآن، وكتاب المصادر في القرآن، وكتاب الجمع والتثنية في القرآن. ويعتبر الفراء من نحاة الكوفة وشيوخها في العربية، قال ثعلب: لولا الفراء لما كانت اللغة لأنه حصلها وضبطها، ولولا الفراء لسقطت العربية لأنها كانت تتنازع (٢). وروى ابن النديم في فهرسته أن الفراء قال لأصحابه: اجتمعوا حتى أملى عليكم كتاباً في القرآن. وجعل لهم يوماً. فلما حضروا خرج إليهم. وكان في المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس في الصلاة، فالتفت إليه الفراء فقال له: اقرأ بفاتحة الكتاب نفسها ثم نوفي الكتاب كله. فقرأ أن الرجل وفسر الفراء، فقال أبو العباس ثعلب: لم يعمل أحد قبله مثله ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه.

واستمر مسجد الكوفة في مسيرته التاريخية وهو يحفل بالأدباء والعلماء وطلبة العلم، يقوم بواجبه الثقافي، وتفتح منه أنوار المعرفة في شتى فنونها وأبوابها.

وفي المسجد كان المحدثون يعقدون الحفلات لرواية الحديث، كما كان القضاة يعقدون جلساتهم في رحبانه، وهكذا أصبح المسجد مكاناً للدرس والتدريس فيه يتعلم الناس القراءة والكتابة، ويحفظون القرآن الكريم، ويتفهمون معاني آياته، ويدرسون اللغة العربية ويسمعون الشعر ورواياته، هذا من ناحية التعليم. أما ما يخص التربية، أي تربية الفرد المسلم، فإنها كانت بشكل عام قائمة وخاضعة للتعاليم الإسلامية ومنبثقة من وحي القرآن الكريم وروح السنة الشريفة، ومستمدة أصولها من التقاليد والعادات العربية الأصيلة. فالتربية إطار قوامها العام، الخلق الحسن والآداب الحميدة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والشهامة والمروءة والعفوة والمقدرة والتعاون وعمل الخير

(١) الجزري / النشر في القراءات العشر - ج ١ ص ١٧٣

(٢) الألباري / نزعة الأدب / تحقيق الدكتور السامرائي ص ٦٥

والكرم والشجاعة وضبط النفس ومساعدة الفقراء والضعفاء. وكان الرسول محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام - وصحابه - رضي الله عنهم - القدوة لحسنة للجيل العربي المسلم في صدر التاريخ الإسلامي .

إن المساجد الإسلامية ، مدارس صنعت الرجال العظام وخرجت العلماء الأفاضل ، إنها مدارس كانت تعمل بحق من أجل إعداد جيل قوى يتحمل عبء المسؤولية ، جيل يؤمن بالله عز وجل وبرسالة الإسلام الخالدة ، مدارس هذبت النفوس وصقلت العقول وأحييت الضمائر ، فالنفس المؤمنة الطيبة والعقل المفكر النير والضمير الإنساني الحى ، كانت دعائم حياة المسلم وعلامته الشخصية العربية الإسلامية ، إنها أمكنة عاش فيها الإمام على بن أبى طالب (ع) رمز الجهاد الخالد ومثال الفداء وبذل النفس ونموذج العلم الشامل الكامل وعنوان الصبر والفضيلة وصفحة الإسلام بالحق والعدالة ، أجل أنها مدارس خرجت حمزة بن عبد المطلب وبلال الحبشى وصهيب الرومى وعمار بن ياسر ومصعب بن عمير وأبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وزيد بن حارثة وطلحة بن عبيد الله وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين ، كان لهم أثر كبير ، في وضع الأسس الرصينة من أجل بناء مجتمعتنا الإسلامى المجد .

واستمرت المساجد الإسلامية في أداء رسالتها التعليمية ، وأخذت تعمل على تخريج عناصر علمية طيبة عملت على توسيع وتطوير العلوم وخدمة الإنسانية. تخرج في تلك المدارس الإمام جعفر الصادق (ع) وكان ملازماً العلم والتعليم في مسجد المدينة حتى توفي سنة ١٤٨ هـ . ويعتبر الإمام جعفر الصادق (ع) رأس الفقه الإسلامى وعنه أخذ أبو حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى ١٥٠ هـ ومالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ هـ ، وظهر الشافعى في مسجد القضاة ، وتعلم أحمد بن حنبل في مساجد بغداد ، وإن معظم الفقهاء تفقهوا في المساجد قبل نشأة المدارس .

وفي المساجد الإسلامية تعلم وتبع الكثير من اللغويين والمفكرين والفقهاء والمحدثين والمؤرخين . ومن المساجد التي اشتهرت بحلقات العلم وأدت رسالتها

التعليمية على أحسن وجه: المسجد النبوي الشريف، ومسجد البصرة، ومسجد الكوفة، ومسجد القضاة، ومسجد القيروان، والمسجد الأموي بدمشق، والمسجد الأقصى، ومسجد الزيتونة، وجامع المنصور ببغداد، ومسجد قرطبة، ومسجد ابن طولون والأزهر الشريف في القاهرة، ومشهد الإمام علي في النجف الأشرف، إن هذه المساجد الإسلامية أدت رسالتها التعليمية والثقافية خير أداء، وكانت النواة الأولى في تأسيس المدارس الجامعة في العالم الإسلامي، ذلك لأن المساجد كان يدرس فيها - كما قلنا - الكثير من العلوم ويفد إليها الطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامي؛ فالتدريس في مسجد المنصور ببغداد كان أمنية كثير من العلماء والفقهاء، ذكر الخطيب البغدادي: أنه لما حج شرب من ماء زمزم وسأل الله أن يحقق له ثلاث حاجات إحداها أن يحقق له بملاء الحديث بجامع المنصور (١) وذكر ياقوت في معجمه: أن الكسائي كان يحنس في جامع المنصور ليقرا اللغة وتلمذ عليه القراء وابن السعدان (٢).

وروي أن أعرابياً دخل مسجد البصرة فأنشئ إلى حلقة يتذاكرون فيها الأشعار والأخبار، فجلس وهو يستطيب كلامهم، ثم أخذوا في العروض وتباحثوا في أوزان الشعر، وظن أنهم يأتمرون به فخرج مسرعاً وهو يقول شعراً يشرح حاله:

قد كان أدخلهم في الشعر يعجبني      حتى تعاطوا كلام الزنج والروم  
لما سمعت كلاماً لت أفهمه      كأنه زجل الغربان واليوم  
وليت منفلاً والله يعصمني      من التعمم في تلك الجرائم

وروي السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ أن القراءات والطب والميقات بالإضافة إلى دروس التفسير واللغة درست في الجامع الطولوني (٣).

ومن الجدير بالذكر أنه كانت تلحق بكل مسجد مكتبة ضخمة تضم

(١) الخطيب البغدادي / تاريخ بغداد ج ١ ص ١٨

(٢) ياقوت / معجم الادباء ج ٤ ص ٢٤٣

(٣) السيوطي - حمن المعصرة / ج ٣ ص ١٣٨

عدداً كبيراً من الكتب في مختلف العلوم والفنون والتي كانت توقف في العادة على المساجد حتى لا تبدها الأيدي .

فالتعليم تطور في المساجد الإسلامية تطوراً ملحوظاً منذ أن شيد أول مسجد في عصر الرسول (ص) حتى القرن الرابع الهجري ، فقد كان التعليم قاصراً على تعلم القرآن وحفظه ، تطور إلى دراسة العلوم اللغوية ثم إلى دراسة الحديث وروايته ، وبعد ذلك أخذ الفقه وأصول طريقته إلى المسجد ، ثم بدأت الجدالات الكلامية تأخذ مكانها في رحاب المساجد، وقد نشأ منها علم الكلام والفرق الإسلامية كالمعتزلة والأشعرية وغيرهما من الفرق الكلامية . وفي القرنين الثاني والثالث الهجريين نصبت حركة تدوين العلوم الشرعية وحركة تدوين العلوم اللسانية، وصار المعلم لاغنى له عن درس التفسير والقراءات والحديث والنقح والكلام والنحو واللغة والبيان والأدب ، وبرزت في هذين القرنين حركة الترجمة ونقل علوم التلذاي وترأهم من فلسفة وهندسة وموسيقى وطب وكيمياء . وهذا يؤدي بنا إلى حقيقة حضارية واضحة. ذلك أن طلب العلم في أول الأمر كان يتناول العلوم الدينية واللغوية ، ثم تناول بعد ذلك غيرها من العلوم الدخيلة ، ولهذا كانت الثقافة الإسلامية مزيجاً من علوم المسلمين والعرب ومن علوم الأقدمين . وقد لعبت المساجد الإسلامية دوراً مهماً في الحركة العلمية التي سادت القرنين الثاني والثالث الهجريين وكانت طليعة البعث الثقافي وقاعدة التعليم بوجه عام قبل ظهور حركة المدارس في العالم الإسلامي .

والمساجد الإسلامية التي أدت رسالتها التعليلية بنجاح وازدهار ، كانت خير أمكنة انتشرت منها بحوث وتأليف العلماء والفقهاء والأدباء . ومعظم المصادر العربية والإسلامية المخطوطة والمطبوعة كان المسجد مكان كتابتها ونشرها، فاتقرآن الكريم ، كتاب الله العزيز . كان الرسول (ص) يعلم بكل ما يوحى إليه على أصحابه الطيبين في مسجده الشريف . وصار الناس يستسخون القرآن الكريم عندما انتشرت نسخ منه في المساجد الإسلامية . وفي مسجد المدينة صنف مالك بن أنس كتابه (الموطأ) ، وفي مسجد القسطنطينية

ألف الشافعي كتابه (الأمم)، وفي مسجد البصرة كتب الحليل بن أحمد الفراهيدي كتيبه المعروفة والتي من أشهرها كتاب (العين)، وفي المسجد الأقصى بدأ الغزالي في تصنيف كتابه المشهور (إحياء علوم الدين) وأتمه في جامع دمشق، وفي المشهد التروى أملى الشيخ أبو جعفر الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ هـ كتابه المعروف (اختيار الرجال) وكان يذنه لإملائه يوم الثلاثاء ٢٦ صفر سنة ٤٥٦ هـ (١). كما أملى شيخ الطائفة - رحمه الله - دروسه التي عرفت بأعلى الشيخ الطوسي على تلامذته في حدود سنة ٤٥٧ هـ ، وقد أملاها ولده أبو علي (الحسن بن محمد) على تلاميذه في مشهد مولانا أمير المؤمنين - عليه السلام - في سنة ٥٠٩ هـ (٢) وكتب التاريخ والتراجم تزخر بأخبار العلماء والفقهاء والأدباء الذين اتخذوا من المساجد الإسلامية أمكنة ملائمة - فيها يتزودون بالعلم والمعارف. وفيها يقبضون ويعيشون، وفيها يدرسون ويتدارسون ويؤلفون ويصنفون ويخلدون آثارهم العلمية والأدبية .

وفي أواخر القرن الرابع الهجري بدأت المدارس الإسلامية في الظهور خاصة في منطقة نيسابور ، ثم انتشرت المدارس في العراق وسوريا ومصر وسائر بلاد المسلمين. ومن الجدير بالذكر أن الباحثين يعتقدون أن أول مدرسة في العراق هي المدرسة النظامية التي أسسها نظام الملك سنة ٤٥٩ هـ في الجانب الشرقي من بغداد ، ولكن الأخبار التاريخية تشير بصراحة إلى أن حركة التعليم في نظامه المرمي بدأت عند الشيعة قبل بدايتها عند غيرهم ، فقد كانت دار الشريف المرتضى مدرسة لأهل العلم، وكان (رض) يجرى على تلامذته رزقاً، فكان للشيخ أبي جعفر الطوسي - رحمه الله - أيام قراءته عليه كل شهر اثنا عشر ديناراً، وللقاضي ابن البراج كل شهر ثمانية دنانير ، وأن الشريف المرتضى كان قد وقف قرية على كاغد الفقهاء (٣) . وأن حركة مبدئية منظمة

(١) أمم بزرك / التريفة : ج ١ ص ٣٦٠

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٣٠٩

الطوسي / أمم الشيخ الطوسي / المقدمة ص ٤٢ ، تقديم العلامة محمد صادق بحر العلوم

(٣) سيد علي خان / التدرجات التريفة / ص ٤٦٠

ظهرت في النجف الأشرف إثر انتقال شيخ الطائفة أبي جعفر الطوسي - رحمه الله الذي عمل على اتخاذ المشهد الشريف مركزاً للتعليم والعبادة بتدريس فقه المذهب الجعفري ، ومنذ ذلك الوقت أخذت مدرسة النجف الفقهية في التقدم والازدهار ، حتى أصبحت أوسع وأهم جامعات العالم الدينية ، كما أضحت المركز الديني الأول للدراسة الفقه الجعفري والمرجع الديني الرئيسي للشيعة الإمامية في العالم الإسلامي ، ومن يريد الاستزادة من المعلومات في هذا الباب فليراجع الأستاذان الفاضلان العلامة السيد محمد صادق بحر العلوم في مقدمته الوافية لكتاب أمالي الشيخ الطوسي ، وموضوع الدراسة وتاريخها في النجف ، ذلك البحث القيم الذي كتبه العلامة السيد محمد بحر العلوم في موسوعة العتبات المقدسة .

وعلى الرغم من انتشار المدارس الإسلامية بشكل واسع وتطورها السريع ، فقد ظل المسجد الإسلامي قاعدة مهمة للتربية والتعليم ، وأخذ يتجاوب مع ما يجد من علوم وآداب تتفق وروح الدين الإسلامي وفيها نفع وخير للإنسانية ، فالأزهر الشريف ، والنجف الأشرف ، والزيتونة في تونس ، والثروين بفاس ، معاهد إسلامية كانت وستبقى باذن الله تمثل الوجه الناصح لمثالية الإسلام وتعبّر بحق عن أهدافه العلمية . وتقدم للعالم نتاج الفكر العربي والإسلامي نبأ من الروح والعقيدة والإيمان .

وهكذا تطور المسجد منذ عصر الرسول - عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام حتى القرن الرابع الهجري ، فأدى رسالته في نشر العقيدة الإسلامية وبعث روح الحماس في قلوب المجاهدين المؤمنين وتهيئتهم للدفاع عن الوطن الإسلامي ، كما نجح نجاحاً بعيداً في تنقيف العقيدة العربية والإسلامية وجعلها تتطور بحيث تنفق وتقدم العلوم ، فالمسجد الإسلامي كان بحق المعبر الأول لنشر العلم في العالم الإسلامي وفيه تخرج الرعيل الأول من كبار علماء المسلمين وفقهائهم الذين كانوا الركيزة الأولى في الحياة العقلية الإسلامية .

الدكتور حسين أمين - جامعة بغداد